مفكر اللغة العربية

صاحب أبو جناح

مراقيون

من زمن التوهيج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة

رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (6032) السنة الثالثة والعشرون

الخميس (20) تشرين الثاني 2025

حوار مع صاحب أبو جناح :
نحن نعيش اليوم حالة ضمور وتراجع في المنجز العقلي العربي

سعدون هليل

الدكتور صاحب ابو جناح مفكر واستاذ في النحو. وان اجراء حوار مع استاذ من طراز ابو جناح يحتاج الى شيء من الصبر، فهو استاذ في علوم اللغة، لا يعادن ولا يستسلم لافكار غيره بسهولة، فإذا قيل له مثلا: انك تنهج نهج أرسطو أو سيبويه نجده يفزع ويقول: لا يا سيدي.. انه نهجي الخاص.. ومنطقي وإبداعي أنا.." والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ماذا يدور في عقل الاستاذ د. أبو جناح بصفته استاذاً جامعياً، عمل في جامعة البصرة والمستنصرية، الجزائر، ليبيا، الاردن، صنعاء وعدن. واختير عضوا في المجمع العلمي العراقي عام ١٩٩٦.

شارك في مؤتمرات علمية عدة في جامعات: البصرة، بغداد، الموصل، الكوفة، عين شمس،ذي قار، المستنصرية، تكريت، اليرموك. اشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه وناقش عددا اخر منها في الجامعات العراقية والعربية.

له من المؤلفات:

× سيبويه: سيرته وكتابه
× الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري.
× الظواهر اللغوية في قراءة اهل الحجاز.
× دراسات في نظرية النحو العربي
× ابن السيد البطليوسي اللغوي الأديب
× شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الاشبيلي. دراسة وتحقيق
× رسالتان في لغة القرآن لابن هشام الانصاري ولابن كمال باشا- تحقيق ودراسة.

في هذا الحوار تناولنا أهم المعضلات والطرائق التي تتعلق باللغة ومدى تأثير اللغة العامية والكلمات الطارئة والدخيلة عليها.

×لغة اليوم "هل تعبر عن الأصل في تحولاتها ؟ أو هي تضعف أمام الأحتياجات الجديدة؟

ـــ"لغة اليوم" مصطلح ينصرف الى مفهومات عدة، فهناك "لغة الإعلام" وهي تخاطب الجمهور، ومن شأنها أن تكون قريبة منه، وأكثره جمهور تسوده الأمية الثقافية وضآلة المعرفة. لذا نجدها تستعين باللهجات الدارجة، وغالبا ما تزاحمها هذه اللهجات في مساحات واسعة من حيزها.

وهي قضية تستدعي علاجا تدريجيا يقتضي تشذيبها من آثار اللهجة الدارجة المرتبطة بأمية السواد من الناس أو شبه الأمية التي تعمه، لأن لهذه اللغة أثرا كبيرا في صياغة لغة التداول اليومي المأمول تفصيحها وتشذيبها من المحليات الدارجة على مستوى الوطن العربي.

وهناك"لغة الثقافة "التي تخاطب جمهور المتعلمين،وبها يكتب الأدب شعرا ونثرا والمقالة الصحفية بمختلف موضوعاتها،وهي أرفع من سابقتها وفي تحول مستمر على مستوى الدلالة والصياغة الأسلوبية،وفيها يتضح أثر التطور اللغوي الذي تستجيب له، والقدرة على التعبير عن العصر بتحولاتها المختلفة وملاحقتها للمستجدات في الإبداع والتذوق والإنتقاء.

وهناك "لغة العلم" بأصنافه الاجتماعية والتطبيقية،وهي لغة متطورة أيضا بحسب احتياجات المعارف الجديدة ومصطلحاتها وللعربية في هذا تجربة تاريخية تتمثل في ما شهدناه من ولادة علوم اللغة والدين والفلسفة والطب والرياضيات والفلك والتصوف وماسواها من العلوم التي ولدت وصنعت لها معجمات مصطلحية خاصة بها،وأساليب للتعبير تباين بشكل واضح أساليب القدماء الذين سبقوهم، والمسيرة التاريخية لهذه اللغة واضحة في ولادتها مع تلاقح الثقافات والعلوم وظهور حركة الترجمة في مطلع القرن الثاني للهجرة وما بعده، حيث بدأت حركة تشكل العلوم الدينية واللغوية والكلامية، ثم ظهرت فيما بعد المعارف الفلسفية والمنطقية التي تمخضت عن ولادة مفاهيم ومصطلحات نشأت عنها معجمات خاصة لم يكن للعربية عهد بها مثل المعجم الفلسفي والتصوفي والكلامي واللغوي بفروعه النحوية والصرفية والبلاغية والعروضية، وكلها انطلقت من أرض اللغة العربية بطريقة التوليد والتعريب والترجمة.

ومازالت هذه "اللغة العلمية"تنمو وتتسع لتلاحق حركة العلوم في عصرنا هذا، ونحن نشهد منذ عقود ولادة لغة الاقتصاد والمال والسياسة بكل أقسامها.وحين نوازن بين لغة علماء الإجتماع المعاصرين ولغة ابن خلدون والماوردي يتضح لنا مقدار تطور هذه اللغة ونموها المضطرد معجما وأسلوبا، مع أننا لانتجاهل الأزمة الراهنة في مواجهة مستجدات المصطلح التكنولوجي الذي يتنامى بوتيرة عالية ليس من اليسير ملاحقتها بما نحن عليه من تأزم حاد في السياسة والمجتمع والتعليم.

وفي هذا البيان إجابة عن الشطر الثاني من السؤال،وهي تنفي نفيا قاطعا مظنة اتهام العربية بالقصور عن مسايرة وتيرة التطور الفكري والعلمي. واللغة، في المحصلة،تنهض بنهوض أهلها وتخمل بخمولهم وفتور هممهم، وبما أننا نواجه اليوم موجة العولمة،وهي تشكل تحديا خطيرا لواقع اللغة في حاضرها ومستقبلها على المستويات كافة،ينبغي لنا أن نتدارك هذا التحدي اللغوي على المستويات التربوية والتعليمية والثقافية، ومن غير ذلك سيغدو واقع العربية مستقبلا مثل واقعها اليوم في البلاد الإسلامية، لغة طقوس وتعبد فقط، شأنها في ذلك شأن اللغة اللاتينية الكنسية. أو ستظل صورة باهتة لتداول يومي لهجي دارج على مستوى السواد العام من المجتمعات العربية المتعددة.

×مارأيك في تركيب الجملة؟ وماتقول في مفارقة أصول البلاغة العربية ؟

– أعتقد أن نظام تركيب الجملة العربية اليوم ومنذ عقود عدة تأثر كثيرا بلغة الترجمة عن اللغات الأوربية، لاسيما في لغة الصحافة التي تواجه يوميا ترجمةسيل من التقارير الصحفية والأخبار التي تصاغ بنظام لغوي يباين أساليب العربية من مثل الإبتداء بشبه الجملة وعود الضمير على متأخر، ومالانجده في أساليب العربية إلا نادراً وعند الضرورة الشعرية.

أما عن مفارقة أصول البلاغة العربية ففي تقديري أن هذه الأصول هي تقاليد أسلوبية يمكن لها أن تتحول وتتباين بحسب حركة الزمن والوعي الثقافي واللغوي الذي يساير تحولات الحياة وتفاعلاتها مع المحيطين الداخلي والخارجي.

وهذا التحول وقع في القديم "التراث" ويقع في الحديث،وملامحه واضحة ومعروفة في صور التحول الأسلوبي الماثل في كتابات المؤلفين. بمختلف اتجاهاتهم بمن فيهم مؤلفو العلوم والتشريع واللاهوت، وهو يتضح في موازنة السياب والبياتي بشوقي والجواهري وموازنة الأخرين بالرصفي والمتنبي.

×كيف ترى لغة الشعر عند الشباب؟ أهي لصالح التعبير عن الحياة الجديدة أو تراها قاصرة؟

– شعراء الشباب ليسوا على منحى واحد، فهيم الذي يملك ناصية اللغة ويحسن خلق صورة الشعرية بموهبته التي تحمله إلى منطقة التفاعل مع متلقيه بمهارة وحذق.وفيهم الذي يحتمي بألغاز اللغة وفرقعات الألفاظ والصور فلا يصل إليك منه غير الصخب اللفظي والحذلقة التي لانحمل مضمونا، وهذه الموجة لابد أن تنحسر لأنها لاتنسجم مع منطق الحياة ونسقها الواضح، وإن كان هناك من يشجعها ويتبناها من الخارج بسوء نية فيما أعتقد.

وصفوة القول أن الشعر فكر وجداني، وليس هناك شعر– كما يقول أراغون– مالم يكن هناك تأمل في اللغة، وفي كل خطوة إعادة خلق لهذه اللغة. وهذا ما نراه ماثلا في لغة الحداثيين من شعراء التفعيلة الذين يشكل نتاجهم تحولا نوعيا عاليا في التعامل مع اللغة سواء من حيث الدلالة أو من حيث الأسلوب، ولعل البداية انطلقت ممن سبقهم من المجددين الكبار إبتداءً بالبارودي وانتهاءً بالجواهري ومن عاصرهم مثل شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وسواهم من الذين خلقوا لأنفسهم لغة جديدة فارقوا بها لغة الكلاسيكيين ورثة تقاليد العصور المتأخرة.

×ما مدى الإستفادة مما أسميته يوما "شجاعة العربية"؟

– "شجاعة العربية" مقولة أطلقها فيلسوف اللغة ومنظّرها الفذّ أبو الفتح ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ)،وأراد بها ما يصطلح عليه "بالاتساع" في اللغة أو "العدول" عند القدماء، و"الانزياح" أو "الانحراف" عند المحدثين، وهذا العدول يقع في ألفاظ اللغة توسعا في صورة إطلاق المذكر على المؤنث أو العكس والمفرد على الجمع أو العكس، لعلاقة أو مناسبة ويكون في النثر أو في الشعر، وهذا ما كان من شأن الدعوات الدينية والسياسية التي وجدت لها صدى واسعا في غير التربة التي نشأت فيها والمجتمع الذي ولدت فيه، بحكم أنها جاءت تلبي الاحتياجات الاجتماعية والروحية لهذه المجتمعات المستقبلة، وقد يكون دور هذه المجتمعات المستضيفة فعالاً في البناء الفكري والاجتماعي والسياسي لهذه الدعوات والمبادئ على نحو ما شهده الإسلام والمسيحية والفلسفات الديمقراطية والاشتراكية في المجتمعات التي تقبلتها سلماً او حرباً، فوجدت فيها أفقاً رحباً للعيش الواعي المستنير، وأسهمت في البناء الفكري والثقافي لهذه المبادئ الوافدة عليها.

من هنا لا يمكن التنكر للقديم الذي انبثقت من أرضه الأفكار الجديدة، ولا رفض الجديد الذي هو ثمرة الحتمية التاريخية وجدل الواقع المتحرك مادياً وفكرياً، وحركة التاريخ ليست إلا صورة الصراع الذي يقع بين الجهات المنتفعة من القديم وتلك المتضررة منه، فأهل القديم لا يريدون ان يتخلوا عن امتيازاتهم ومنافعهم، لكن حركة التاريخ لا تسمح باستمرار القديم إلا إلى حين، ريثما ينزوي في بطون الذكرى وكهوف النسيان، ما لم يكن جديرا بالاستمرار في الواقع أو في الذاكرة التاريخية، لإسهامه في بناء الحضارة الإنسانية.

فالإشكالية لا يمكن اختزالها في أن تقف إلى جانب هذا أو إلى جانب ذاك، ولكن في أن تتبنى الجديد القائم على شرعية جدواه للمجتمع الإنساني، المتحرك دائما باتجاه المستقبل، ونضع القديم الراسخ موضع الاعتزاز والحرص الدائم للرجوع اليه بوعي وبصيرة ناقدة فاحصة.

×ما علاقة الإبداع العربي اليوم – في رأيك – بما آلت اليه حالة العقل العربي ؟

– الإبداع ثمرة لنشاط العقل وهو يتناسب في سعته وعمقه مع سعة عمل العقل ونشاطه، ونحن نعيش اليوم حالة ضمور و تراجع في المنجز العقلي العربي، بل نحن نواجه مشكلة فجوة في العقل العربي في العلم و في المعرفة اللغوية فلسفة وتنظيراً وتطبيقاً. ونحن نشكو من أزمة حادة في المستوى اللغوي. وهو ما يفسّر تخلّفنا علمياً وتكنولوجيا وحضارياً عن الأمم الأخرى التي تقدّمنا عليها في الوجود التاريخي والحضاري لقرون عدّة ثمّ تجاوزتنا لمراحل عدة في هذا المضمار الحضاري.

ويفسّر الباحثون في هذا الشأن أسباب ذلك التأزم الحاد بعدم الاهتمام أكاديميا وثقافياً بنظرية المعرفة وفلسفتها، وجفاف الروافد العلمية التي تصب في مسار التنظير العلمي في مختلف فروع أفكار الناس وأقلامهم ورؤاهم، بغض النظر عن الحذر الذي ينتاب المثقف والمفكر من تجاوزات الوارثين لسجية الحجر على الآخر وادعاء السلامة بل القدسية لرؤيتهم دون رؤى الآخرين، ولهذه المواقف جذور غذّاها ويغذيها الفكر الشمولي المطلق سؤاء كان يساريا أو يمينيا أو غيبيا.

ونحن اليوم نجد الكاتب و المثقف يتمتع بقدر غير قليل من الحرية ليس على مستوى الفكر السياسي و الحكم على مجريات الأمور، بل على مستوى الرؤية الفلسفية والاجتماعية والثقافية، لكن الخشية الحقيقية التي تشكل هاجسا قويا لدى المثقف ومصدر قلق له هو شيوع الأمية المعرفية لدى قطاعات واسعة من المجتمع بسبب تراكم الجهل المتعمد الذي كرسته السياسات السابقة ثم استغلال هذا الواقع المأساوي، الأمر الذي يؤدي بلا شك الى تغييب الحقيقة وإضعاف الرؤية الصائبة ان لم يكن مصادرتها أصلا ويمكن القول ان الثقافة العراقية تشهد اليوم حالة مخاض عسير وتواجه تحديات ليست مقتصرة عليها، بل تشهدها الثقافة العربية بوجه عام شرقا و غربا، ولعل تجربة المثقفين في مصر وتونس و الجزائر والمغرب ومواجهة الفكر الاكليروسي المتعسف تمثل صفحة كبرى من صفحات الصراع الثقافي في عالمنا العربي.

ولدي من قراءة تاريخ بلدنا حصيلة اقتناع بأن وضعها اليوم؟

– لا يختلف اثنان في أن الأفق الذي وجدت الثقافة العراقية نفسها فيه غير الأفق الذي كانت فيه قبل التغيير، وبغض النظر عن اختلاف الحكم على هذا الوضع الذي وقع، وتعارض وجهات النظر حوله بين تباين وتناقض فأعتقد أن ما نتفق عليه جميعا أن هذا التغيير وما تبعه من ترسيخ بعض المبادئ عرفا أو تشريعا رفع الحواجز والقيود عن أفكار الناس وأقلامهم ورؤاهم، بغض النظر عن الحذر الذي ينتاب المثقف والمفكر من تجاوزات الوارثين لسجية الحجر على الآخر وادعاء السلامة بل القدسية لرؤيتهم دون رؤى الآخرين، ولهذه المواقف جذور غذّاها ويغذيها الفكر الشمولي المطلق سؤاء كان يساريا أو يمينيا أو غيبيا.

ونحن اليوم نجد الكاتب و المثقف يتمتع بقدر غير قليل من الحرية ليس على مستوى الفكر السياسي و الحكم على مجريات الأمور، بل على مستوى الرؤية الفلسفية والاجتماعية والثقافية، لكن الخشية الحقيقية التي تشكل هاجسا قويا لدى المثقف ومصدر قلق له هو شيوع الأمية المعرفية لدى قطاعات واسعة من المجتمع بسبب تراكم الجهل المتعمد الذي كرسته السياسات السابقة ثم استغلال هذا الواقع المأساوي، الأمر الذي يؤدي بلا شك الى تغييب الحقيقة وإضعاف الرؤية الصائبة ان لم يكن مصادرتها أصلا ويمكن القول ان الثقافة العراقية تشهد اليوم حالة مخاض عسير وتواجه تحديات ليست مقتصرة عليها، بل تشهدها الثقافة العربية بوجه عام شرقا و غربا، ولعل تجربة المثقفين في مصر وتونس و الجزائر والمغرب ومواجهة الفكر الاكليروسي المتعسف تمثل صفحة كبرى من صفحات الصراع الثقافي في عالمنا العربي.

ولدي من قراءة تاريخ بلدنا حصيلة اقتناع بأن الإبداع قد يخبو حينا ويضمر أحيانا، لكنه مايلبث أن يتوهج في مولد جيل من الشعراء المبدعين والكتاب النابهين والمفكرين الراسخين لا سيما اذا أتيحت لهم فرص الاحتكاك بالثقافات المتقدمة والتجارب الناضجة عالميا، لان الثقافة الانسانية كائن عضوي يتمدد في مساحات واسعة من الجغرافيا والتاريخ معا.

×الفجوات التي نوهت عنها في الثقافة اللغوية بخاصة في الثقافة الاجتماعية بعامة مالسبيل الى علاجها وتجاوزها؟

ـــ تؤشر تجارب الامم الناهضة في عصرنا، وتجربتنا نحن في الماضي في عصر نهضونا الحضاري وبناء الدولة العربية الاسلامية في عصورها المتقدمة تشير الى ان الاستعانة بتجارب الشعوب المتحضرة والفكر الانساني المتقدم هي السبيل الى تجاوز الواقع المتخلف وبناء حضارة مكينة تأخذ موقعها بين المنجزات الانسانية الراسخة.

فالحضارة البابلية في القديم قامت على تفاعل مع الحضارة السومرية واستلهام منجزاتها على المستويات المادية والروحية.

والحضارة العربية الاسلامية قامت على الاستعانة بترجمة علوم اليونان والهند وفارس وتمثلها فضلا عما كان عندها من ذخيرة الاسلام ووعيه المتقدم في رؤيته الانسانية الشاملة.

ولا شك أن النهوض المتسارع الذي نشهده اليوم في اليابان والصين وجنوب شرق اسيا وامريكا اللاتينية ماهو الا ثمرة تلاقح هذه البلدان بمنجزات الحضارة الغربية فكرا وادارة وانتاجا ماديا، و مما لاشك فيه اننا عانينا قطيعة مجحفة وحيفا بالغا من جرّاء انقطاعنا عن التواصل مع المنجز الحضاري العالمي المتقدم بسبب الظروف المعروفة التي حاقت ببلدنا وألحقت بنا خسائر فادحة وكوارث قاصمة، مانزال نعاني عواقبها حتى اليوم.

والذي نحتاجه اليوم لعلاج الركود الذي نحن عليه على مستوى الوعي العلمي واللغوي والثقافي، هو مراجعة برامجنا العلمية بعامة وبرنامج الدرس اللغوي بخاصة.

وينبغي لنا لتلافي مانحن فيه من تخلف حاد ان نسارع بالتوجه الى الجامعات العالمية المرموقة ومراكز البحث العلمي ومعاهده ومؤسساته لنستقي مما عندها من منجزات، وتجربة الاشقاء المصريين في الاربعينات والخمسينات وكذلك تجربة الأشقاء المغاربة خير ملهم لنا في هذا السبيل. ثم اعادة النظر في برامجنا الدراسية ونفض الغبار المتراكم عليها منذ عقود عدة،وتجديد دمائها باضافة مواد جديدة و حيوية ومفصلية في تكوين وعي متنور متكامل يحرك الفكر ويخلق قدرة على المحاكمة العقلية للمشكلات و التقاطعات الفكرية، والرؤية العلمية السليمة عند طلبة العلم والباحثين، فعلوم حيوية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم المنطق والفلسفة بمختلف اتجاهاتها العقلانية وعلم اللغة المعاصر بفروعه في الاصوات والتراكيب والدلالة والمعجم والمصطلح وبقية فروعه المستجدة ماتزال غائبة تماما عن قاعات الدرس في أقسام اللغة العربية سوى ومضات هنا أو هناك يدرسها هواة الدرس اللغوي ممن لم يتخصصوا على نحو دقيق بهذه العلوم، وهو الامر الذي يعرفه جميع العاملين في أقسام اللغة العربية ويضجون بالشكوى منه ومن آثاره المثبطة. وليس لنا اليوم من علاج لهذه الظاهرة غير وضع الامور في نصابها وتلافي هذه الثغرات المعوقة لكل تقدم ونهوض حقيقي بعقول الدارسين وحصائلهم العلمية المأمولة.

ومن نافلة القول أن هذه المطامح مرتبطة بإصلاح الوضع العام في الوطن ووضع الامور في نصابها والاهتداء الى طريق بناء هذا البلد على الوجه الذي يحقق مطامح جميع مكوناته السياسية والاجتماعية والدينية، وينطلق به الى آفاق الإعمار والبناء والسلام الاجتماعي.

عن الحوار المتمدن

الفكر اللغوي في رسالة الغفران

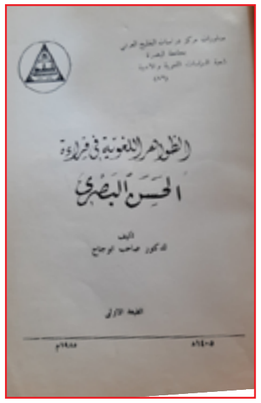
الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري
د. صاحب ابو جناح

> تشكل التساؤلات المتدفقة وتحاقلها المستمر في سبر أقاليم المعرفة حاضنة أساسية من حواضن الكشف عن آفاق تبدو متساوقة من ناحية الصدور والنظر، الأمر الذي ما انفكت المراجعات المنهجية تنظر إليه بمنظار الاحترام والتبجيل، ثمة مواضيع تأخذ بريقها من عدة أصحابها المعرفية وأخرى تسجل في مبرزات التكوين لولوجها عوالم تعد في أحايين كثيرة مناطق غير ذات بال لمن سبق له التعاطي مع تلك الموضوعات, رغم المراجعات والدراسات التي اصطبغت بميسم الاجترار والترداد وإطلالة السبعة التبجيلية في التثاقف مع منجز لا يعد في النظر الفاحص سوى مؤمثلات سبق للآخر أن قدم محاولات كشف وإظهار هجست بنزعة دوغمائية سجلت الظاهرة الأبرز في الطروحات الأكاديمية المعتادة.

د. (أبو جناح) وسؤال اللغة

مؤيد آل صوينت

قد يتبادر للذهن لأول وهلة، أن الأمر يتعلق بمكونات مفهوم (سؤال اللغة): العناصر والعلاقات ومبادئ التنظيم، تمثل العناصر الجنبة البنيوية للغة، أما العلاقات فتظهر الطبيعة الوظائفية لها، فيما تنهض القواعد النحوية بحمولات مبادئ التنظيم، انطلاقاً من هذه التوصيفات، تبدو اللغة فاعلاً يفرض على الفكر جملة من الحدود المتساوقة تارة والمختلفة تارة أخرى، وضبطاً لقيم ذاتية تلح في تخوم التحديدات لتغدو عنصراً قاراً فيها، هذه الدقة التمييزية في التوصيف تتسابق كغلالة تفترش مدونات شيخنا الأستاذ لتظهر من تلافيف نسجها ترصيعات المعرفة، وثريا العلم.

هذا التعالق يدفعنا إلى التأكيد أن الاتصال اللغوي مع تكوينه البنيوي وسمته الوظائفية لم يكن إقصاء وطلاقاً بين المتلازمات، بل كان تطوراً وانفتاحاً لها، الأمر الذي حمل شيخنا الأستاذ (أبو جناح) إلى القيام بدراسات هي من اللغة في الصميم بضميمة الاستعمال، بمعنى أن اللغة تحولت مع الاستعمال إلى لغة نحوية – وظائفية، ولغة فكرية – استعمالية، من غير أن يؤدي هذا الاستلال إلى انمحاقها كما ظن البعض، بل أدى إلى الكشف عن أبعادها الجديدة والمتجددة، رائية في سؤال اللغة البعد المفتوح المثوّر للعقل والمنظم للمعرفة اللغوية المترامية الأطراف، ولا يختلف منطق القضايا اللغوية على مختلف تفصلها عن هذا المنحى الرابط دوما بين الذهنيات والتعيّنات أو بين التصور وما يفترض أن يكون واقعا، فالمعادلة ذاتها قائمة في متن مكتوب أو ملفوظ شفاهي، غاية الأمر، أن المعيار في هذا هو السبيل الزمني لا غير.

ومن المعروف أن سؤال اللغة إذا احتك بسؤال العقل أدى إلى سؤال الدلالة لا محالة، لذا، تظهر تحديدات شيخنا الأستاذ بمثابة الرصد لمسارات التشكلات اللسانية على اختلاف توجهاتها، ويمكن أن يُستشفّ من خلالها المتمخضات الفكرية التي واكبت تطور مدلولاتها، إذ تداخل المعرفي باللغوي وأصبح فضّ الاشتباك بينهما ضرباً من المحاولة غير محمودة النتائج، فلا يمكن تحديد مرجعية واضحة فضلاً عن تخصيص حيز واضح المسارات وتخوم كل مفهوم على حدة.

وإذا كان حديثنا ينعقد حول بنية الجدل الخلاق في مدونات شيخنا الأستاذ، فإن من أهم خصائصه البنيوية أن قيمة كل عنصر بما فيه لا يتحدد إلا في ضوء قواعد النظام الذي تنتمي إليه، من هنا نستطيع أن نطرح فرضيتنا المتمثلة في أن سؤال اللغة عند (أبو جناح) يقوم على مدى الانسجام والانصهار بين التمثلات المعرفية التي تتجسد متداخلة أحياناً ومتوازية أحياناً أخرى، هذه التمثلات تعد البنية الكلية لهذا الجدل اللغوي الخلاق، ولعل مفهوم النسق والنسق المضمر، سواء في صورته، أو في عناصره الجزئية المتمثلة في نسق الاستقصاء – نسق الشمول – نسق التساؤل – نسق المثاقفة – نسق الإحاطة – نسق التحول – لعل هذا ما يشكل المفاهيم الكلية الذي طبعت منجز شيخنا الأستاذ منذ مدوناته الأولى. فضلاً عن هذا، فإن النظر الفاحص لمدونته قادنا إلى الوقوف عند بنى أصلية وطارئة في مجمل الحمولات التي طرحها، ففي إطار البنية الأصلية تظهر تشكلات المعرفة اللغوية الأولى وآفاق تمثلها مهمورة باشتراطات وضوابط تقف عند تخومها من غير الولوج إلى عوالم افتراضية لا محدد لها، أما البنية الطارئة فيجليها النقد الدائم للنماذج التمثيلية التي تخضع الملفوظ إلى جدلية الافتراض والقاعدة، بما يؤدي إلى الفصل بين الصيغ والوظائف، وأتاح هذا الضبط الدقيق المسكون بهاجس الإفادة – أقول – أتاح لشيخنا الأستاذ التقرب كثيراً من فكرة الائتلاف الكلامي، الأمر الذي لم تحفل به التمثلات الافتراضية ولا تعده معياراً للتمخض ضمن إطار الدقة والتحري والأمانة ليتجلى الالتباس في الخطاب النحوي واضحاً في القسم الموجود بين التصور الواقعي والمنحى التأليفي الذي يسوّره داخل المنظومة اللسانية العربية الموروثة.

انطلاقا من المعطيات السابقة، يبدو (سؤال اللغة) سؤالاً حاضراً عند (د صاحب ابو جناح) في مجمل مدونته الكتابية والشفاهية المختزنة ضمن أسارها مجموعة من الكتب والبحوث المتشحة بوشاح التعاطي مع التراث اللغوي تارة، والتحاور مع الجلبة الحضارية تارة أخرى، وعلى الرغم من تسييق سؤال اللغة في المتن (الصاحبي) إلا أنه ظل الهاجس المستمر المنبجس الذي تعاطى معه على امتداد مسيرتها المعرفية المتسابقة. وهنا يطل التساؤل الآتي: ما المكونات التي شاركت في تشكيل التوجيه المعرفي لدى شيخنا الأستاذ؟ والينابيع التي حفرت مسارات جريانها في أخاديد منجزه ؟ للإجابة عن هذا التساؤل يمكن رصد مجموعة من المصبات، يمكن تحديدها وفقاً الآتي:

مثل (سيبويه) ومدونته المدهشة (الكتاب) ينبوع التأسيس الأول في التشكّل اللغوي عند شيخنا الأستاذ وتعاطيه مع اللغة بجانبها الفعلي الاستعمالي لا الافتراضي المصنوع، وهو الأمر الذي ما فتئت مدونة (شيخ النحاة) تأكيده والإصرار عليه، وهو ما يتجلى في إيراد (سيبويه) لمفردة (الكلام) على حساب الملفوظ (الجملة) وهو المصطلح الذي اتسعت مديات استعماله في المدونات اللغوية بعد صاحب الكتاب، لاسيما المتأخرة منها، وتبدو تصورات (شيخ النحاة) حاضرة في معظم المنجزات المعرفية لشيخنا الأستاذ، بل حتى في تحايثه مع اللغة بروافدها الاستعمالية التي ما انفكت تأن تحت وطأة الاشتراطات والقيود القسرية المسلطة عليها من قبل معظم النحاة الذين أعقبوا سيبويه بعد إنجازه مدونته الخالدة، هذا التأكيد على البعد الاستعمالي للغة يتبدى سمة بارزة من سمات شيخنا الأستاذ لنصوص العربية، سواء المتون الواصفة للتكوينات اللغوية أم النصوص الشارحة لها، أما التفصلات الافتراضية فلا يحتفي بها كثيرًا، لابتعادها عن القيمة التنجيزية وإيغالها في البعد الفيزيقي الذي جعل من المنوال النحوي عصياً على التمثل والامتصاص.

وتظهر في أعطاف مدونات شيخنا الأستاذ تلك الرؤية التي تصور (الكتاب) على أنه منجز مثاقفة بين الخليل وتلميذه النابه، فالتطلعات الدقيقة لسيبويه وظفها الخليل وشيدها بإجابات ومراجعات اصطبغت بالصبغة العلمية الواثقة والهادفة إلى إخضاع الظاهرة اللغوية لاشتراطات منزوع منها الطابع الإعلامي كما هو ديدن شيخ النحاة وأستاذه العظيم. ويتبدى هذا التصور في معظم المحاورات والتعليقات التي أوردها شيخنا الأستاذ والطروحات التي تناولها براعه، ففي حين يلجأ معظم من رقنوا إلى الشروح وشرح الشروح، يركن أستاذنا إلى مدونة شيخ النحاة باحثا فيها عن الأصول المعرفية المهيكلة لظاهرة ما، أو ترجيح رأي على آخر بعيداً عن هاجس التقليد والاجترار الذي يسور قواعد النحو العربي، التوجه الذي حفز على النزعة الاستعمالية للغة وأدخلها مدخل النحو الافتراضي بما يذهب برونقه وأبعاده التواصلية.

وشيّد (ابن جني) النسق المضمر الثاني المشكل الآفاق الفكر اللغوي لدى شيخنا الأستاذ، ولما كانت العبارة اللسانية، في جوهرها، بحثاً عن الدلالات، فهي تصطدم بمعطى أساسي: لا يستطيع الإنسان التعبير إلا عما تسمح له اللغة بالتعبير عنه، ومع استحضار المكتسبات الثقافية والمضمون التواصلي لذاكرتها، يصبح بالإمكان النزوع نحو ثيمات خلاقة ومناويل راكزة للتعاطي معها. وفقاً لهذا التصور، لم يكن (ابن جني) مجرد عالم ضمن جمهرة من العلماء ضبطت المعرفة اللغوية العربية بمساطر نقدية قل مثيلها، ويبدو أن التشكل الثقافي لابن جني وفرادته أثار إعجاب شيخنا الأستاذ وأخذ منه المأخذ الذي ينبجس في معظم منجزه، فالقراءة الفاحصة لأعطاف مدونته تكشف عن مجسات التلقي الشمولية، ومغزى التعالق بينهما، يتمظهر من مقولات (ابن جني) في التأويل وتبنيه لقراءات مختلفة تتميز بسمة الفرادة فيما يتعلق بالطروحات اللغوية التي سبقته، فضلا عن تلقيه النص بهاجس التساؤل لا التقبل المنزوع عنه صيغة المراجعة والمحاورة. ومنذ بداية التشكل المعرفي لشيخنا الأستاذ، مثل ابن جني النسق المضمر الذي ما انفكت قراءته وآفاق تمثله تؤسس لثقافة استمدها من فواتح فضاءات اتسمت بطبيعة التعامل مع النصوص بتوصيفها نصوصاً مفتوحة قابلة للمثاقفة والتفريع، الأمر الذي وظفه شيخنا الأستاذ في معظم أعماله، ولو شئنا أن نقدم دليلاً على دعوانا لوجدناه جلياً فيما كتبه أستاذنا عن ابن جني ومقارنته بما رقته عن (المبرد)، فالنزعة الاجترارية التي طبعت (تفكير المبرد) سجل عليها شيخنا الأستاذ نقداً علمياً هادئاً لمثل هذه التوجهات التي أثقلت المدونة اللغوية باشتراطات أبعد ما تكون عن طبيعة البحث اللغوي، وجعلت النحو ينوء بأعباء ما كانت لتوجد لولا هذه النزعة الافتراضية التي هيمنت على الدرس النحوي لقرون طوال بحمولات أبعد ما تكون عن الاستعمالات الفعلية التي نشدها سيبويه وأستاذه قبل أن تتحول إلى مجموعة من المقننات البعيدة عن القيمة التنجيزية للملفوظ ووظيفته في التواصل والبلاغ، وهي القيمة التي تكاد تكون السمة الأبرز في مجمل أعمال ابن جني، وتبدو مقولات التأويل والقراءة المفككة لأنساق الثقافة المشكلة القواعد النحوية هي الجنبة الأكثر استشرافاً في تعاطي شيخنا الأستاذ مع التراث اللغوي العربي وآفاق تمظهره، هذا التمظهر المستند إلى التحاور مع نصوص صيغت في أزمنة متفاوتة اقتضت طبيعة الحقول المنضوية تحتها أن تكون متفاعلة وفق السياقات والأعراف المائزة بين تشكل وآخر. وفضلاً عن التحاقل العلمي بين ابن جني وشيخنا الأستاذ، تبرز سمة مشتركة على الجانب الشخصي بينهما، تتبلور في الطلب المستمر للمعرفة وملاحقتها اينما وجدت، ولسنا بحاجة إلى التذكير بموقف (أبي على الفارسي) مع ابن جني ومقولته الشهيرة له، المقولة التي حدت بابن جني على أن يلازم الفارسي لأكثر من أربعين عامًا، وهذه السمة أظهر ما تكون عند شيخنا الأستاذ عبر ملاحقته لكل ما يستجد على صعيد التحصيل وتمثله للمعرفة الحديثة تمثلاً متشبعاً بالحرص على قراءته وتلقيه، الأمر الذي عانيت منه – شخصياً- ، فكان إن تكرم أستاذنا علي بكتاب من خزانته أجد لزاماً أن أقرأه لئلا أُحرج عندما يسألني عن أفكار مبثوثة فيه.

أما ثالثة الأثافي لدى (أبو جناح) فهو الأستاذ إبراهيم مصطفى، الباحث الذي انطبعت مراجعاته النقدية للتصورات اللغوية الموروثة في ذهن شيخنا الأستاذ بتلازم يكاد يشاكل مقولة اللفظ والمعنى إذا جاز لنا أن نستعير مثل هذا التوصيف، مثل إبراهيم مصطفى الظاهرة الأبرز للنظر النقدي المنعتق من بوتقة التقليد وهاجس التقادم، ليسجل علامة فارقة في الدرس الإحيائي عبر مراجعاته المستمرة لمقولات النحاة واشتراطات وضع القواعد وتقنينها، الأمر الذي نمّ عن جرأة لم يسبق لها مثيل في التربيض النقدي للمدونة النحوية، منذ بداية تشكلها، وسحبها إلى تخوم التدوين، هذا الأنموذج في التثاقف مع الآراء بعيدًا عن جلباب القداسة المكتسبة من التاريخ، مثل أقليما تعاطى معه شيخنا الأستاذ في معظم محاوراته الشفاهية والكتابية، ومحاولة نزع القداسة واليقين في أحكام وآراء اكتسبت مرديديتها المعرفية بالقدم ليس إلا، أما عند تفكيك أنساقها وفحص التمظهرات المبثوثة في أعطافها، فتظهر مدى التناقض والاضطراب المتناسل لقواعد أبعدت اللغة عن مجالها الأهم: التفاعل والاتصال، قد يكون إبراهيم مصطفى الأيقونة المقلية بظلالها على كثير من الدارسين في جوانب جزئية أو انتقائية، لكنه مثّل عند شيخنا الأستاذ -فيما أتصور – الأنموذج المحتذى به للمراجعة المستمرة للمفاهيم والتصورات والمقولات التي اكتسبت طابع الأحكام القارة، لتسجل اشتراطاتها على المتون النحوية اللاحقة لها، فالتفسير الذي يصنف حركات الإعراب وتبويب خانات الموقعية وتشارطها مع أساليب العربية في التعبير نلفيه مبثوثاً في معظم الأبحاث المدونة من قبل شيخنا الأستاذ لمراجعة الجهاز المفاهيمي النحوي وآليات اشتغاله، سواء ما يندرج تحت عنوان التيسير، أو ما يمكن تضمينه تحت حقول أخرى، لاسيما حقل الافتراض العلاماتي وزجه في توصيف مقولات محددة المغارق للتأصيل النظري الحامل لندوب الممارسة الافتراضية، وهو ما تعج به المدونات النحوية العربية بعد سيبويه، ويبدو موضوع الأساليب الموضوع الأثير لدى شيخنا الأستاذ، وصداه المتفرع عن الاهتزاز الذي حركه إبراهيم مصطفى في بحيرة النحو العربي الراكدة، ولعل دعوى أستاذنا المستمرة إلى قراءة المدونة اللغوية بعيدًا عن الافتراض الذي أثقلها بتفسيرات وفهوم وقصود وتعليلات هي أبعد ما تكون عن الممارسات اللغوية الصرفة، لعل هذه الدعوى تشكل العمود الفقري لتحرير الممارسة اللغوية من كل ما علق بها وإرجاعها إلى الصبغة الوظيفية وقصدها الاتصالي المنتج القواعد تضبط إيقاعها من غير أن تدخل نشازاً في لحن وجودها.

وداعاً أستاذي ومعلمي

عبد العليم البناء

إنتقل إلى رحمة الله تعالى عن عمر ناهز الـ٨٧ عاماً أستاذي ومعلمي العالم الجليل الأستاذ المتمرس صاحب أبو جناح في السادس من تشرين الثاني ٢٠٢٥ ،بعد مسيرة علمية امتدت لأكثر من ستة عقود كرّسها لخدمة اللغة العربية وتراثها الأصيل، والذي درسني علم النحو والصرف في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة البصرة للأعوام ١٩٧٢ ولغاية ١٩٧٦ إلى جانب نخبة لامعة من الأساتذة الأفذاذ أمثال : ناصر حلاوي، عبد الحسين مبارك، زاهد العزي، خليل إبراهيم العطية، وغيرهم، الذين كانوا يتبارون في زقنا علوم اللغة العربية بحرص ومسؤولية علمية وتربوية مفعمة بسمات أخلاقية رفيعة وأصيلة، وبقيت على تواصل معه حتى سماع خبر وفاته لتخسر الثقافة العراقية عامة واللغة العربية خاصة، أحد أيقوناتها وأعلامها البارزين على الصعيدين المحلي والعربي، فلقد لقد كان مفكراً لغوياً ونحوياً من الطراز الرفيع رسم طريقه الخاص بمنهج ثابت الرؤى ونهل منه طلاب العلم ومشوا على خطاه.. وتميّز بعمق بحثه ودقته في التحليل اللغوي، وكان من الأصوات العلمية التي تربط بين أصالة التراث العربي وروح المنهج الحديث في الدرس اللغوي.

وكان الراحل الجليل المولود في محافظة ميسان بالعراق عام ١٩٣٨ متميزاً في مسيرته العلمية منذ تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي في مدارسها حتى حصل على الثانوية عام ١٩٥٧، وحصل على بكالوريوس اللغة العربية بدرجة الشرف من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة بغداد ١٩٦١، وعلى الماجستير في النحو والصرف بتقدير ممتاز من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة بغداد ١٩٦٩، وعلى الدكتوراه في النحو والصرف بتقدير مرتبة الشرف الأولى من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧١، وعمل مدرسًا لعلوم اللغة العربية في جامعة البصرة للأعوام ١٩٧١-١٩٨٥. ورُقّي إلى مرتبة أستاذ مساعد ١٩٧٧، وانتقل إلى كلية الآداب في الجامعة المستنصرية ١٩٨، ورُقّي إلى مرتبة أستاذ عام ١٩٨٨، وبقي في الخدمة الجامعية حتى عام ١٩٩٧، واضطر إلى الهجرة من البلاد بسبب الحصار والوضع الاقتصادي الصعب.

لم ينقطع عطاؤه وحضوره الأكاديمي على الصعيد العربي فعمل رئيساً لقسم اللغة العربية لفترات متفاوتة في كل من جامعة صنعاء وجامعة تعز، وعمل أستاذاً لعلوم اللغة العربية في كلية التربية بجامعة عمر المختار الليبية ١٩٩٧-١٩٩٦، وأستاذاً لعلوم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة مؤتة الأردنية ٢٠٠٠ – ١٩٩٧، وفي جامعتي صنعاء وتعز ٢٠٠٠ - ٢٠٠٦.

أعيد إلى الخدمة في كلية الآداب الجامعة المستنصرية، وباشر عمله منذ ٢٠٠٦ رئيسًا لقسم اللغة العربية حتى نهاية عام ٢٠١٠، أحيل على التقاعد في ٢٠٠٩ بعد إكماله السن القانونية، ومُنح لقب أستاذ متمرس في ٢٠١٠. وكان رحمه عضواً في المجمع العلمي العراقي، وانقطع عنه بسبب ظروف الهجرة خارج البلاد، واللجنة العلمية ولجنة الدراسات العليا في قسم اللغة العربية في كليات الآداب بالبصرة والمستنصرية ومؤتة (الأردن) وتعز (اليمن)، والهيئات الاستشارية لعدد من المجلات المحكمة، والاتحاد العام للأدباء والكتاب بالعراق.

وله العديد المؤلفات والبحوث في اللغة والنحو والصرف وتحقيق المخطوطات المنشورة ومنها: آفاق الدلالة في كلمة (الله)،إبن السيد البطليوسي اللغوي الأديب، حياته منهجه في النحو واللغة، شعره. الاحتجاج النحوي عند ابن مالك بين الدليل العقلي والدليل النقلي. الأساليب العربية وشوائب الأساليب المترجمة. أسلوبية استخدام الضمير في النص القرآني: قراءة في سورة الكهف. الإعراب على الخراف في الجملة العربية: محلولة على طريق التيسير،ألفاظ الانتماء الاجتماعي في الشعر الجاهلي،الإمام القدوة حماد بن سلمة.أوضح المسالك لابن هشام الأنصاري بين شراحه والمعلقين عليه. التأويل النحوي بين تعدُّد القراءات وتسلّط القواعد، التعارض بين تأويل المعنى وتقدير الإعراب في النحو العربي، تعثر الأدوات في أساليب المعاصرين: ابتذال الواو في الاستخدام، التغليب لابن كمال باشا، تحقيق، دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها،الدرس النحوي وأزمة الكتاب المنهجي، الرحمة في رحاب اللفظ القرآني، رسالتان في لغة القرآن لابن هشام الأنصاري وابن كمال باشا، تحقيق ودراسة.سيبويه، هوامش وملاحظات حول حياته وكتابه.شجاعة العربية ونظرية الحمل على المعنى، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الإشبيلي، دراسة وتحقيق جزءان.صفحة في اللغة، سلسلة مقالات في مجلة القافلة.صفحة في اللغة: استقرار اللفظ وتحول الدلالة، صفحة في اللغة: متشابهات أم مختلفات. الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري. الظواهر اللغوية في قراءة أهل الحجاز.الفكر النحوي والصرفي عند الأثري. قدح الذاكرة: صفحات مطوية من سيرة طائر الجنوب.قراءة الأعمش وخصائص القراءة الكوفية.القياس في منهج المبرد،كتاب التوضيح لابن هشام بين شرّاحه والمعلقين عليه.المتبنى والمشكلة اللغوية.مرونة العربية بين الممكن والمتحقق.المشاغل اللغوية في فكر الدكتور عبد الرزاق محيي الدين. مشاهد الريف مصدرًا للصورة الشعرية: قراءة في شعر حسب الشيخ جعفر.المصطلح النحوي واللغوي في كتاب العين.المضمر في القصص القرآني مثال في رحلة موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح.المناقشات والتعقيبات: رد على الدكتور خليل العطية.منهج ابن عصفور النحوي من خلال شرحه لجمل الزجاجي.منهج إبن هشام النحوي من خلال كتابه التوضيح. نظرية السياق عند اللغويين العرب وأثرها في تحديد المعنى.

وفضلاً عن هذا العطاء الغزير أشرف الراحل على عدد من الرسائل والأطروحات العلمية في جامعات البصرة والمستنصرية وقسنطينة بالجزائر، وتعز وعدن باليمن، وناقش عددًا منها في جامعات البصرة وبغداد والكوفة والموصل وكربلاء وأربيل جامعة صلاح الدين بالعراق، وقسنطينة بالجزائر، ومؤتة بالأردن، وصنعاء وحضرموت باليمن،وشارك في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية في دمشق وبغداد والموصل والنجف والبصرة وإربد والقاهرة وذي قار وميسان، إضافة إلى حصوله على عدد من التكريمات والشهادات التقديرية من جميع الهيئات العلمية والأكاديمية والجامعات العراقية والعربية وإطلاق اسمه على قاعة كلية التربية في الجامعة المستنصرية.

كُتب عنه أكثر من بحث من بينها: (جهود الدكتور صاحب أبو جناح في اللغة والنحو والتحقيق)، رسالة ماجستير في كلية التربية للعلوم الانسانية في جامعة البصرة عام ٢٠١٩ لجبار سامي علي، ورسالة ماجستير في كلية الآداب بجامعة واسط بعنوان (من ملامح التفكير النحوي عند الدكتور صاحب جعفر أبو جناح.

وعلى الصعيد العائلي فهو شقيق الشاعر العراقي الكبير الراحل حسب الشيخ جعفر، وله زوجة معلمة متقاعدة وولد وبنات اثنتين إحداهما أستاذة في كلية العلوم بالجامعة المستنصرية والثانية تحمل شهادة البكالوريوس في هندسة الإلكترونيات والإبن يحمل شهادة ماجستير في الهندسة الكهربائية وهو أستاذ في جامعة دیالى.

لقد رحل أبو جناح جسداً لكن أثاره الفكرية والعلمية واللغوية والنحوية والثقافية ستبقى خالدة في عوالم اللغة والأدب والثقافة.

في الغياب... في رحيل الأستاذ الدكتور صاحب أبو جناح

د. رعد السّيفي

للغياب لغةٌ مقدّسةٌ تشبه لغة الترانيم،لايدُ أن نلامس حروفها بقدسية الإبتهال،والصّلوات.

مرّةً أخرى يطرق الغيابُ أبوابنا،فنصغي لأنين الحروف التي لانملك غيرها للدّفاع عمّا تجيش به الروح،وهي تسفح دموعها من وراء أجفان الوجد.

كم نختصر من الوجع،ونحن نلملم خرائط الأزمنة؛لنبصر امتداد المسافات منذ الخطوة الأولى حتّى بلوغ نهايات الطّريق ؟.

كم هي محطّات الصّمت التي تقطر حنيناً ؟ومثلها الصّباحات التي حفرت ملامحها بإتقان شديد على جدران الذّاكرة ؟.

كان لخفقة الجناح تحليق في الرّوح التي بقيت فضاءً فسيحاً لتحليقه بين طيورها الأثيرة.فكيف لهذا المداد أن يحيط بكلّ تلك الأرواح ؟.

منذ ذلك الغبش الآذاري،وأنا أجمع ألواح الكلمات التي قادت خطانا إلى أوّل الدرب.كنّا نحمل أسرارها،ونتهجّى أبجدياتها ،حتى صدحت الحروف فوق الشّفاه،ونما الغرس بين يديها،وهو يحاول أن يجد له مكاناً في زحمة الأصوات،وقد تحقق له ذلك.

أراني أمشي إليك...ناثراً باقات الأزهار بغية انقاذ الفراشات من مجرمة المصابيح !

كان اللّقاء في بصرة الخليل حبيباً ! ولكنه في بغداد منذ أربعين عاما له طعم آخر.فمنذ أن وطأت أقدامك ثرى آداب الجامعة المستنصرية ترسّخ حضورك حجراً في بناء معمار الرّوح،وأسرارها ،وازداد لمعانا مع تقادم الأيام.

يوم افترقنا... لنعود ثانية،رأيتك تحمل مشعل الضّوء،وتسير أغوار العتمة على الرّغم من كثافة الجراح التي خرجنا بها بعد عام ١٩٩١.

كنت تعيد عليّ ما حدّثتك به بذاكرة فتيّة لايشوبها النّسيان.يوم احتفيت بك على مائدة الضّوء بعد أيّام من اختيارك لعضوية المجمع العلمي العراقي، كنت تستقرئ الأفق بدقة متناهية بوعي العارف تماما ...ولكن..هي فسحة أتاحها لنا الزّمن لاغير،ونحن نقطع الطريق بين بغداد والبصرة،لتحظى هناك برؤية رفاق الرّحلة القدماء،ونؤثّث ساعات رحلتنا بكلّ ما هو مفرحٌ وبهيج.ولكن...وما أن بدأت الأشواك تعلو ؛ لتدمي الأصابع قبل شبابيك المنزل التي خلعتها طيور الظلام،ولحسن الحظ يومها ،فقد حالت الأبواب المقفلة بينها،وبين التّوغل في براءة الروح ؛ رأيتك تنأى ؛،وما كان منك إلاّ أن تسلك طريقاً بعيداً ..هناك حيث شواطئ الشّمال الأفريقي !:.

هناك أقمت طقوس انعتاقك،غير أنّ القلب بقي يتلفّتُ إلى حيث أنغامه،فاتخذت الدّنو سبيلا،لتحلّ في البلاد المنيعة بين حَجَة وتعزّ الحالمة في اليمن السعيد.

وكأنّ الطريق يعود ثانية ليجمعنا هناك،وكان لك في إب،حيث أقيم،وأعمل في جامعتها ،محطة أكثرت من التّردّد إليها،فسعدنا باللقاء ،نقّلنا خطواتنا الغريبة بين شوارع إب،وعلى قمم جبالها،واسترحنا في أرجاء صنعاء أكثر من مرّة،وبقينا نحفر أبجديتنا على حجر راسخ في القدم،حتّى إذا لاح موعد عودتك إلى بغداد،رأيتك تتّخذ من زيارة إب محطة أخيرة،لنمضي يومين معا قبل موعد رحلتك.

عشرون عاما ــ إلاّ قليلا ــ مضت،وكلّما كلمتك في الهاتف،أو كلّمتني ،وأنت تسألني عن موعد للعودة،أسوة بعدد من أعزّة الروح الذين يسألون !.

يالرهافة روحك،أيّها الطّيب النبيل،فوفاؤك لا حدود له،ومحبتك صادقة صدق أيّامنا في بغداد أو اليمن.

قلّما رأيت شبيها لك في حبّه للحياة،فكنت تغترف من جمال الطبيعة ماستطعت إليه سبيلا بعين محبٍّ عاشق يتماهى مع الأشياء،وهو بكامل هدوئه ،ودمائثه المعهودة،لذا بقي قلبك القوي أسبوعا كاملا يذود عن وجودك في وجه العارض المرضي الذي ألمّ بك !.

فاجأتني في سبتمبر الماضي بأنّ ألماً بدأ يدبّ في الرّوح ! فاتخذت العصا رفيقا تتوكأ عليه !ضحكت طويلاً...وقلت لك :ربّما لك فيها مآرب أخرى ! لأنني لم آخذ ما حدثتني به على محمل الجّد،وحين هاتفتك بعد إسبوع.. أصبح شكّي خوفاً عليك.

غير أنّك سرعان ماتعود إلى سيرتك الأولى في بثّ الفرح مع محدّثيك،تسأل عن الأهل والأصدقاء،وتتفقّد الأحبّة،وتخوض في الإصدارات قديمها،وحديثا.

إتصالان في أكتوبر ..كنت أحسن حالاً،وأقوى عزماً.

كان آخر إتصال بك مساء ١٤ أكتوبر،تحدثنا طويلا،أخبرتني بمن زارك من تلاميذ الأمس،وعن صديقك الحميم أستاذنا الدكتور سمير الخليل..استحضرنا اقتراب موسم طيور الماء،وحرقتها،والأسى الذي سوف ينتابها حين لا تجد بعد كل هذه الرّحلة الشّاقة،غير بقايا رماد يقطرُ على وجع المسافة !!.

في ٢٨ أكتوبر،كانت آخر باقة ورد تصلني منك، عبر الهاتف،ترجو بها لمحبيك مساءً سعيداً.

في ٢٩ أكتوبر أخبرني العزيز د.سمير الخليل أنك في المشفى،وفي العناية المركزة.بقيت معلّقا في الهاتف أبحث عن أيّ جديد عنك أو منك !حتى وصلتني بعد ثلاثة أيام صورة لك، ألتقطت من باب مواربة،وأنت تغرق في عزلة تامة !.

صباح ٦ نوفمبر انتهى الأمر !! فبقي الألم كامناً في الرّوح...

فيا أخي وأستاذي وصديقي..على أيّ بابٍ سأطرق حينَ أعود ؟.

أراك تطالعني،وأنا أطوي في صدري عاصفةً من ريحٍ الوحشة،وتهاجر من بين أصابعي الكلمات..باحثة عن زمن آخر كي نقول به مالم نقله !.

إنّ روحي تئنُّ بفعل الغياب ... وليس بقلبي سوى صدى ضحكة كنت علقتها في آخر إتصال هاتفي،وأمامي خريف ثقيل !

يقيمُ وداعاته

فوق متن الرّصيف،

ويذرفُ أسراره

في دمي !

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون
فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
هيئة التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:
www.almadasupplements.com
Email: info@almadapaper.net
طبعت بمطابع مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون

صاحب أبو جناح مفكر اللغة العربية

صابرين خزعل

من الصعب ان يختصر الانسان مسيرة المفكر اللغوي والنحوي الاستاذ المتمرس الاكاديمي الدكتور صاحب ابو جناح التدريسي في الجامعة المستنصرية في جواب محدد او اسطر معينة ، إكاديمي رسم طريقه الخاص بمنهج ثابت الرؤى يرتوي منه طلاب العلم ويمشون على خطاه ، مفكر وعالم لغة في قسم اللغة العربية في الجامعة المستنصرية كتب العديد من المؤلفات منها سيبويه : سيرته وكتابه ، و الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري ، اضافة الى كتاب الظواهر اللغوية في قراءة اهل الحجاز دراسات في نظرية النحو العربي ابن السيد البطليوسي اللغوي الأديب ، ودراسة شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الاشبيلي دراسة وتحقيق ، والعديد من البحوث والدراسات الاكاديمية التي كتبها لخدمة العلم وهدف العلم الذي يسعى الى تحقيقه في مسيرته اللغوية العربية والعلمية.

الاستاذ المتمرس في الجامعة المستنصرية الدكتور صاحب ابو جناح من مواليد ميسان لسنة ١٩٣٨ ، حاصل على بكالوريوس لغة عربية من جامعة بغداد ، وماجستير في النحو والصرف من جامعة القاهرة لسنة ١٩٦٩ ، ومن جامعة القاهرة ايضاً حصل على الدكتوراه في النحو والصرف .

بدأ الدكتور صاحب ابو جناح التدريس الجامعي من جامعة البصرة منذ صيف سنة ١٩٧١ منذ أن تحول وظيفيا من مدرس ثانوية ولمدة عشر سنوات في ملاك وزارة التربية الى ملاك وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بعدها انتقل الى ملاك الجامعة المستنصرية في كلية الاداب قسم اللغة العربية منتصف ثمانينات القرن الماضي وبقي في الخدمة الجامعية حتى عام ١٩٩٧ ، ثم اضطر الدكتور ابو جناح الى ترك الجامعة والبلد بشكل عام بسبب ظروف الحصار المفروض على العراق والوضع الاقتصادي الصعب في البلد ، وتنقل في عدد من الدول كانت بدايتها صوب ليبيا بجامعة عمر المختار ، ثم انتسب في الجامعة الاردنية فترة من الزمن ، حتى انتقل الى اليمن في جامعة صنعاء والتي شغل فيها منصب رئيس القسم لمدة سنتين ، وبعدها جامعة تعز اليمنية مدرسا في كلية الاداب وكلية التربية ومعهد اللغات قسم اللغة العربية لجامعة تعز بقي في اليمن حتى عام ٢٠٠٣ ،

عاد بعد تغيير السلطة الى العراق ولم تكن الظروف مهيئة للعمل في الجامعة المستنصرية بسبب وضع البلد الامني في تلك الاونة ، ورجع الى اليمن فترة من الزمن حتى استقر الوضع في العراق وصدور امر وزاري بأعادة الاساتذة المنقطعون عن العمل قبل فترة السقوط ، وباشر سنة ٢٠٠٦ في الجامعة المستنصرية وشغل فيها منصب رئاسة قسم اللغة العربية الى عام ٢٠٠٩ ،

حتى وصوله للسن القانوني للتقاعد ، الا ان اصرار زملائه في القسم على بقائه معهم والاستفادة من خبرته الاكاديمية قد اثمر على توقيعه عقد تدريسي مع القسم بقي بموجبه ضمن الكادر التدريسي حتى يومنا هذا،

وقد تم منحه لقب استاذ متمرس .و مازال المفكر اللغوي ابو جناح الى هذا الوقت يمارس التدريس الجامعي والاشراف على طلبة الدراسات العليا ومناقشة الرسائل الجامعية في رحاب الجامعة المستنصرية وبقية الجامعات الاخرى مشرفاً خارجياً ،

يشعر الدكتور صاحب ابو جناح بالحنين الى جميع الاماكن التي عمل فيها ، الا أن اكثرها أشتياقاً المعهد العالي في باب المعظم ومكان عمله السابق وسكنه في كربلاء التي عمل فيها تدريسيا لمدة خمس سنوات ، فيما تشده الذكريات الى القاهرة التي درس فيها عدد من السنوات وعاش فيها ايام جميلة ، تعلم فيها الكثير وتفتحت امامه افاق المعرفة اللغوية والاكاديمية ، ولم تكن الجزائر محطة عابرة في حياته بسنواتها الثلاث وعاش فيها ايام رائعة بكل تفاصيلها وذكرياتها .

كان ابو جناح يتجنب تسلم المناصب الادارية ويرفضها قدر الامكان رغم تقبله رئاسة القسم بعض الاحيان مرغما بسبب اصرار زملائه ، يرى في العمل الاداري ارهاقاً ، توضعه بمتاعب وضغوطات مع الناس وهو بالغنى عنها ، يعتز ابو جناح بعضويته في المجمع العلمي العراقي واتحاد الادباء العراقين اضافة الى عضويته في جامعة العميد في كربلاء كونه عضو مؤسس فيها.

حصل المفكر ابو جناح على الكثير من الالقاب والجوائز والتكريمات اهمها حصوله على لقب استاذ متمرس ، اضافة الى عدد من التكريمات والشهادات التقديرية من جميع الهيئات العلمية والاكاديمية والجامعات الحكومية والعربية والتي تعتبر محل اعتزاز وتقدير له وعلى الصعيد العائلي له زوجة معلمة متقاعدة وولد وبنات اثنين احداهما استاذة في كلية العلوم الجامعة المستنصرية والاخرى الصغرى تحمل شهادة البكالوريوس في الهندسة الكترونيات. اما الابن الاوسط يحمل شهادة ماجستير في الهندسة الكهربائية و هو استاذ في جامعة ديالى. تمثل العائلة للدكتور صاحب حياة الانسان وظله ومأواه وبيته الذي يجد فيه المرفأ الذي يلجأ اليه الانسان بعد تعب الحياة وتعتبر العائلة امتداده وسعادته في الحياة.

يعتبر ابو جناح اسباب الوصول الى سلم النجاح الحقيقي هي التوفيق الالهي بدل من كلمة النجاح ويرى ان الارادة القوية هي التي تحسم التردد والوصول الى سلم القمة ثم المثابرة لأن هذان العنصران لابد من وجودهما لتحقيق اي منجز و نجاح في حياة الانسان اضافة الى الاستقامة الشخصية التي يحققها الانسان على قدر الممكن في السلوك والتصرف والمعاملة مع الناس فهي تعد وسيلة جيدة لتحقيق النجاح في الحياة مثل قاعدة الصدق منجاة لأنها حقيقة ثابتة ومؤثرة وضرورية لأستقامة الشخص في الحياة وديمومة تواجده واكتسابه محبة الاخرين والتي تعتبر شيء اساسي لنجاحة وصعود سلم النجاح وهبة ربانية لا يملكها الا ذو الحظ العظيم لذلك اسرار النجاح هي الارادة والمثابرة والاستقامة والتعامل بخلق مع من حولك .

يرى الدكتور صاحب ان وصول الاكاديمي العراقي الى النجاح العالمي لا تتعلق بالاستاذ وحده انما تتعلق بالظروف المحيطه به سواء كان على مستوى ادارة الجامعة او البلد بشكل عام ، مشجعاً على تطوير عمله وتوسيعه بأمتدادات خارج حدود بلده بعلاقات واسعة ن اجل الوصول الى العالمية ، مؤكداً أن هناك اساتذة حققوا الشيء الكثير عندما توسعوا وذهبوا الى افاق اكبر في الهندسة والطب والعلوم الانسانية والكثير من العلوم الاخرى ، لأن في العراق لاتوجد وسائل مساعدة للأكاديمي في بعض الاحيان ، مما يحد من طاقة الانسان بشكل عام ، موجهاً نصيحة رئيسية للشباب الاكاديمي في ان يضعوا بين اعينهم خدمة الهدف من العلم الذين نذروا انفسهم اليه ، وان يكون تحقيق هدف خدمة التخصص نصب أعينهم قبل ان يكون همه الورقة او الشهادة التي تتيح له الحصول على الوظيفة فقط ،رغم ان العمل هدف مطلوب ولكن خدمة التخصص والتوسع في مجاله و الصعود الى مراتب اعلى من اقرانه والطموح المستمر هو كل مايحتاجه الاكاديمي من اجل التميز والنجاح الدائم .

ويؤكد الدكتور صاحب ابو جناح أن الجيل الحديث من الشباب لغتهم العربية ضعيفة نوعا ما ولكنها حالة قديمة منذ الاجيال الماضية لذلك نحتاج وسائل عدة لأتقان اللغة وجهود تتظافر لخلق حالة السلامة اللغوية وهي موزعة مابين البيئة والمجتمع والمؤسسة والاعلام وايضاً الثقافة لما لها دور جميعها في تطوير اللغة والاهتمام بها ، وبأعتقادي هي ليست قضية تربوية بل قضية تعليمية تتظافر جهات عدة فيها ، للوصول الى اعلى المستويات الثقافية للفرد او الجماعة لأن اللغة تعامل مستمر لذلك هي مرتبطة بتطور ثقافة المجتمع.

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون